تداولية المكان في أسريات المعتمد بن عبّاد

أ.عائشة عويسات- جامعة الوادي

أ.د.أحمد بلخضر- جامعة ورقلة

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تبيان طريقة استعمال المكان في شعر الأسر عند المعتمد بن عبّاد(*) الشاعر الأندلسي ملك إشبيلية وأسير أغمات بمراكش(ت488هـ) ، ومدى توفّر هذا الاستعمال على عنصر القصد؛ الذي يُعدّ بدوره أساسا من أسس الدراسة التداولية للخطاب الشعري، ومدى نجاعة توظيف التصورات التي توصّلت إليها الدراسات في مفهوم المكان الشعري خاصّة.

Abstract

This research aims to explain the use of place in the captivity poetry of ALMUATAMED BEN ABBAD. The Andalusia poat king of Seville and the prisoner of Aghemat in Marrakech. 448 Hidjer. It seeks also if that use expresses the aim main wich is a principal ele,ent in the pragmatic studies of poetry. The main purpose of the study is to applay the new studies of the place concept in poetry.

تقديم:

لم يكن المكان حادثا طارئا في شعر الشاعر العربي بعامة والأندلسي بخاصة، إنما هو رؤية خاصة تشكّلت عنده، ووظيفة عبّر بها عن دلالة معينة أرادها أن تصل غلى متلقّيه. إذ احتفى الشاعر القديم بالمكان على أنه طلل، والطلل - وإن كان مكانا محددا - إلا أنه موضوعة فلسفية في أساسها الأول. ومن ثمّ كان في فسحة الشعر مجال للطلل.

ولا يقتصر المكان على ذلك البعد الجغرافي ذي الحدود المتعارف عليها. إنما أصبح له بعد تدريجي يشعّ بالإيحاءات والانعكاسات، التي تتيح للشاعر الانطلاق نحو عالم فسيح من الخيال والأحلام والذكريات.

وقد شكّل تمسّك الشاعر الأندلسي بالمكان وتردّده في شعره، جملة من الدلالات وتصوّرًا لما تحمله رؤيته الخاصة للأمكنة. خاصة إذا تعرّض لمحنة الأسْر بعد سلب الملك الأمر الذي حدث مع المعتمد بن عبّاد. فقد انتقل قسرا من كونه ملكا لإشبيلية أقوى دويلات الطوائف، إلى أسير أمضى ما بقي من عمره يبكي في أغمات بمراكش مجده ومجد آبائه، متذكّرا قصوره وساحاته ومجالسه ومبانيه السلطانية فيما يشبه الحلم والذكرى. والسؤال الذي يروم هذا البحث الإجابة عنه؛ هو من قبيل:

ماهي الأمكنة التي أوردها المعتمد بن عبّاد في شعره؟ كيف نظر لها من ناحية الأُلفة والرفض؟ وكيف أثّر أسْرُه على وجهة نظره للمكان؟

تُعدّ الإشاريات الدرجة الأولى من درجات التحليل التداولي، وهي بفروعها الثلاثة (الأنا، الهُنا، الآن) تُعنى بتتبُّع العناصر الإشارية الدالة على حضور الأشخاص أو الشخوص والقرائن الزمانية والمكانية في الخطاب؛ المتمثلة في الضمائر وظروف الزمان والمكان، وما تحيل عليه في السياق الذي وردت فيه. وهي:" مفهوم لساني يجمع كلّ العناصر اللّغوية التي تشير مباشرة إلى المقام؛ من حيث وجود الذات المتكلّمة أو الزمان أو المكان، حيث ينجز الملفوظ والذي يرتبط به معناه؛ ومن ذلك: الآن، هنا، هناك، أنا، أنت، هذا، هذه. وهذه العناصر تلتقي في مفهوم التعيين أو توجيه الانتباه إلى موضوعها بالإشارة إليه، وهي تنظّم الفضاء انطلاقا من نقطة مركزيّة هي الذات المتكلّمة "أنا" (1) وبذلك تعمل الإشاريات على رصد مسافات القرب والبعد بين الذات المتكلّمة و عناصر السياق الذي تنتمي إليه؛ كأطراف الخطاب، ومكان وزمان التلفظ.

والإشاريات المكانية هي عناصر إشارية تدل على أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أوعلى مكان آخر معروف للسامع أو المخاطب، ويكون لتحديد المكان أثر في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو جهة.

ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسّروا كلمات مثل: هذا، ذاك، هنا، ونحوها. إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر.

وأكثر الإشاريات المكانية وضوحا هي أسماء الإشارة نحو: ذا، وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم، وكذلك هنا وهناك وهما من ظروف المكان التي تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم ،وسائر ظروف المكان مثل: فوق، تحت، أمام، خلف ...إلخ كلها عناصر إشارية لا يتحدد معناها إلا بمعرفة موقع المتكلم .(2)

وعند الحديث عن المكان في الشعر، نجد اهتمام الشعراء والرؤية العربية بالمكان على أنه طلل، يمثل في عين الشاعر منظرا جديدا، وفي نفسه إحساسا متميزا، فيتحول المكان من دلالته الجغرافية إلى أطلال شخصية لا يمكن فهمها والوعي بأهميتها إلا بالعودة إلى السياق الذى وردت فيه، والمتمثل في حياة الشاعر وما اعتراها من ظروف، فرضت أهميتها في استعمال الدلالة السياقية للمكان، لتوضيح مقصود الكاتب.

وعند العودة إلى شعر الأسر عند المعتمد بن عبّاد نجد أنّ الشاعر احتفى بذكر أسماء الأماكن ووصفها. ولا نجد غير أثر بسيط لاستعمال العناصر الإشاريّة الأخرى كأسماء الإشارة مثلا. وهذا ما

يدفعنا إلى الاتّجاه و استغلال البحوث في المكان، عموما عند المنظّرين له في الدراسات السردية مثل غاستون باشلار، أو المطبّقين له في الشعر مثل حبيب مونسي. وسنعتمد على تقسيم المكان إلى مكان أليف ومكان مُعادٍ، لأنّها تناسب المدوّنة.

فالمكان يرتبط بمفهوم الحرية؛ لأنّ الإنسان يصبو إلى حرّية الحركة، والمكان من بين معيقاته. إذ:"يمكن القول إن الانسان والمكان – من هذا المنحى- تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية. وتصبح الحرية في هذا المعنى مجموعة الأفعال التي يستطيع الانسان أن يقوم بها. دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات أو أيّ بقوة ناتجة عن الوسط الخارجي لا يقدر على قهرها أو تجاوزها.(3)

وليس من المبالغة القول أنّ علاقة الإنسان بالمكان هي علاقة معقّدة تنطوي على جوانب شتّى: "فهناك أماكن جاذبة تساعدنا على الاستقرار وأماكن طاردة تلفظنا. فالإنسان لا يحتاج فقط مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها ولكنّه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصّل فيها هويته" (4) فإذا كانت البيئة يمكن أن ترفض الإنسان أو تحتويه من جهة ،"فإنّ الإنسان طبقا لحاجته ينتعش في بعض الأماكن ويذبل في بعضها وقد تكون نفس الأماكن جاذبة أو طاردة .(5) ويخضع اكتمال الرؤية الشعرية للأمكنة للحال الشعورية التي تكتنف الشاعر تجاه المكان .فيحيلها إلى مجموعة أبيات تقدّم تصورا دقيقا لحاله تلك. والمكان – بالمعنى الفيزيقي- أكثر التصاقا بحياة البشر من حيث إن خبرة الانسان بالمكان وإدراكه له يختلفان عن خبرته وإدراكه للزمان ،فبينما يُدرك الزمان إدراكا غير مباشر من خلال فعله بالأشياء فإنّ المكان يُدرك إدراكا حسّيا مباشرا. (6)

وقد اختلفت مواقف الشاعر تجاه المكان وهذا الاختلاف ما هو إلا نتيجة رؤية الشاعر للمكان وطبيعة العلاقة بين كلّ منهما. ويمكن أن تكون رؤية ايجابية تتمثل بالأُلفة، وقد تكون سلبيّة متمثلة بالعدائية أو العيش في حال غربة تجاه مكان ما. وكلٌّ من هذه الاماكن محدّد لنا بشكل يوضّح موقف الشاعر تجاه المكان. (7)

1- <u>المكان الأليف(المُحبّب):</u>

يعرّفه **غاستون باشلار بأنّه:**"مكان المعيشة المقترن بالدفء والحماية والحنان، ويمنح هذا المكان الحلم والتذكر والسعادة (8)حيث تتمظهر الأُلفة في أماكن مثل البيت عموما .كالبيت الذي يولد فيه الإنسان. على أن التعبير عن الأُلفة يقتضي البساطة والتعبير عمّن عاشوا معنا في ذلك البيت لأنّ: "البيت الذي ولدنا فيه بيت مأهول" يمكن أن يشكّل كلّ ركن فيه ذكرى سعيدة وحلما جميلا (9)والشاعر يرى أنّ المكان الأليف بالنسبة إليه هو قصوره ومجالسه، وبساتينه.

وقوله(10):[من البسيط]

بكى المُبــارَكُ في إثرِ ابنِ عبّادِ بَكى عــلى إثْرِ غِـزلانٍ وآســادِ
بَكَتْ ثُريّاهُ لا غُــمَّتْ كــواكبُه بِمِثلِ نَوء الثُّــريّا الرّائِحِ الـغادي
بَكى الــوحيدُ بــكى الزّاهي وقُبّتُهُ والنَّــهرُ والتَّــاجُ كُـلٌّ ذُلُّهُ بـادي
ماءُ الــسّماءِ على أبْنــائِهِ دِرَرُ يا لُــجّةَ البحرِ دومي ذاتَ إزبادِ

فَقد"تذكّر منازله فشاقته، وتصوّر بهجتها فراقَته، وتخيّل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قُطّانه، وإظلام جوّه من أقماره، وخلوّه من حُرّاسه وسُمّارُه". (11) فالمكان المفقود بالنسبة للمعتمد بن عباد ليس مجرد سطح جغرافي كان يحكمه، وإنما هو مكان يحوي عمر الشاعر وحياته بكل ما فيها من شعر ومجالس وأدب، ومن لهو وطرب، ومن حبّ وصداقات ومغامرات.وقد مُنِيَ بطامّة كبرى هي فقد اشبيلية: وطبيعي لشاعر مثله أن يبكي إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأُبّهة وحياة مرفّهة، واسمه ملء الآذان في الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداحهم . وهو يسيغ عليهم عطايا كأنها سحب غَدقة مُنهلّة، وكلّ ذلك امّحى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس.(12)

وقد نجد المعتمد وفي صورة انقلابية يُبكي الأمكنة عليه، فيترك لها التعبير عن مشاعرها في ظل فقدانها راعيها مما يبرز ارتباط الشاعر الكبير بالمكان . إنه بكاء على الأمكنة الشبيهة بقصوره التي عاش فيها: **المبارك وثُريّاه والوحيد والزاهي وقُبّته** ،كما بكى **النّهر والتاج** عليه. الكل يبكيه بعد أن شعروا بالذل والهوان من بعده. وهو الذي طالما أشعرها بالعزة والكرامة.

ويصف لنا المقّري صاحب النفح قصره الزّاهي:" وكان القصر الزاهي من بين أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبّها إليه وأشهاها، لإطلاله على النّهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالزهر والزيتون، وكان له به من الطّرب، والعيش المزري بحلاوة الضّرب، مالم يكن يجلب لبني حمدان،ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غُمدان، وكان كثيرا ما يُدير به راحَه، ويجعل فيه انشراحه، فلمّا امتدّ الزمان إليه بعُدوانه، وسدَّ عيه باب سُلوانه،لم يحنّ إلاّ إليه،ولم يتمنّ غير الحُلول لديه" (13)

والشاعر حينما يعدد الأمكنة لا يقصد من وراء ذلك تقريرا مجرّدا لأحداث تاريخية، أو ليعلمنا بامتلاكه لها، ولكن لما كان لهذه المواضع من خصوصية عنده، ولأنّه شعر بفقدها حقًّا. أراد أن يعبّر عنها في دائرته الشعرية؛ وليظهر مدى التصاقه بها جعلها هي التي تبكي عليه وتحنّ إليه. وهذا يشير إلى

قسرية الفقد والرغبة العارمة في العودة اليها، إذ شهدت تلك المواضع بأماكنها وأنهارها وقصورها عزّه وعزّ ملكه، فكأنّه يستصرخها ويستنطقها لتبكي زوال ملكه.

وقوله (14): [من الطويل]

تُؤَمِّلُ النّفسُ الشـجِيَّةُ فَرجَـــةً وَتأبى الخُطـوبُ السّودُ إلاّ تَمادِيا
لَياليكَ مِنْ زاهيكَ أصْفى صَـحبتَها كَذا صَـحِبَتْ قَبْلُ المُلوكُ اللَّياليا
نَعيمٌ وبُـؤسٌ ذا لذلـــكَ ناسِخٌ وَبَعـدَهُما نَسخُ المَنايا الأَمــانِيا

في هذه القصيدة ينسج الشاعر خيوط الأمل للعودة إلى الفرح في كنَف الوطن. لكن الخطوب تأبى عليه ذلك. وهربا منها فضّل تذكّر قصره **الزاهي** .

فيلجأ الى عقد مقارنة بين زمنين متناقضين في حكايتين متناقضتين ،وحالين متناقضين .

(النعيم /البؤس) (الزّاهي/السجن) (المنايا /الأماني)

وقوله (15): [من الكامل]

غَـنَّتْـكَ أغْماتِـــيَّةُ الألحانِ ثَـقُلَتْ على الأرواحِ والأبْـــــدان
قدكان كالثعبانِ رُمْحُكَ في الــوغى فغَدا عليك الــرُّمحُ كـالثُّـــعبانِ
مُتَمَدِّداً بِحِذاكَ كُـــلَّ تَـــمَدُّدٍ مُـتَـعطِّـــفاً لا رَحمـةً للــعاني
قلبي إلــى الرّحمن يشـــكو بثَّهُ ما خـاب مَن يشكو إلى الرّحـمـــن
يا سائلا عن شـــأنِه ومكانـه ما كـان أغْـنى شـأنَهُ عن شـــاني
هاتيــك قينتُهُ وذلـــك قَصرُه مِـن بـــعد أيّ مقاصِرٍ وقِيــان
مِـــن بعدِ كُـــلِّ غريرةٍ رومِيَّةٍ تحكي الحمائِمَ في ذُرى الأغْـصـــان

إنّه يستخدم لغة الرثاء ليصوّر مأساته بفقدان ملكه، ووطنه وإن كان في الأصل يرجو منقلَبه ، الا أنه لفريسة المكان .وهو **القصر** وما يحتويه حتى **قيان** . وهو يقابل بين القصر . المكان المرغوب و أغمات وهو المكان المعادي، منسوبا إليه في : **أغماتية الألحان**.

أضافة إلى القبر؛ الذي جعل منه مكانًا أليفا، لأنّه لم يجد المفرّ ممّا هو فيه، واقتربت نهايته، فعبّر عن يأسه، وهنّأ ذلك القبر بدفينه.

ولـمّا أحسّ بدنوّ وفاته رثى نفسه بهذه الأبيات ووصّى أن تُكتب على قبره (16):[من البسيط]

قَـبرَ الغريبِ سقاك الــرّائحُ الـغادي حـــقًّا ظَـــفِرتَ بأشـلاءِ ابن عبّادِ
بالحِلمِ، بالعلـمِ ، بالنُّعمى إذا اتَّصـلت بالخِصبِ إن أجـدبوا، بالرِيِّ للصّـــادي

بالطّاعن ، الضّارب ، الرّامي إذا اقْتتلوا بالـموتِ أحـمرَ ، بالضّرغامةِ العادي
بـالدّهرِ في نَقَمـــٍ ، بـــالبـــحرِ في نَعـــَمٍ بالبَـدرِ في ظُلَمٍ ، بالصّدر فـي النّادي
نعـم ، هو الـحقُّ وافـــــاني بهِ قَـــــدَرٌ مِنَ السّمـــــاءِ ، فوافـــاني لميـــعادِ
ولَـــمْ أَكُنْ قبل ذاكَ النَّعشِ أعـــلَمُـــــهُ أنَّ الجِـــبالَ تَهـادى فَـوقَ أعـــوادِ
كَفَاكَ ، فـارفُقْ بما استُودِعـتَ مِن كَرَمٍ رَوّاكَ كُـــلُّ قَـطوبِ البـرقِ رعـــّادِ
يبـكي أخاهُ الـــذي غيَّـبتَ وابِـلـــــــهُ تحت الصّـفيحِ ، بدمـــعٍ رائحٍ غـــادي
حتّـــى يَـجودَكَ دمعُ الطّلِّ مُنـهَمـــــرا مِـــن أعيُـنِ الزُّهرِ لـم تبخَل بإسْعـادِ
ولا تَزَل صـــــــلواتُ اللهِ دائمـــــــةً عـــــلى دفـينك لا تُحصى بتعـــــداد

بقيت ذكرى المعتمد بن عباد خالدة في أغمات، من خلال القصيدة التي أوصى أن تُكتَبَ على قبره. ويعبّر عن نفسه بـ: **الغريب**، وذلك لأنّه بالفعل غريب عن وطنه ومُلكه.

ومن النادر أنّه نودي في جنازته " الصلاة على الغريب " ." بعد عظم سلطانه، وسعة أوطانه، وعِظَم أمره وشانه". (17)

ثمّ يوضّح نَسَب الغريب صاحب القبر، وهو **ابن عبّاد**، ونجده يعرّف نفسه بنسبته لبني عبّاد، ويرمي من ذلك إلى أنّ كلّ مارٍّ بالقبر لابدّ وأن يتذكّر محنة المعتمد، ونكبته، وأسره.ثمّ يعزّز الغريب ابن عبّاد بالصفات التي هو أهل لها: **الحلم، العلم، النعمى، الخِصب، الرِّي،الطاعن، الضارب، الرامي، الضرغامة، الدهر، البحر، البدر، الصدر.**

2- <u>المكان المُعادي: (المرفوض)</u>

هو المكان الذي أُجبرنا على العيش فيه ولا نشعر تجاهه بأي أُلفة. بل الشعور نحوه بالعِداء والكراهية (18).و لعل من أبرز هذه الأماكن السجون والمعتقلات.

إذ يتحدد موقف السجن الخاص، مادام الزمن الذي يجري فيه لا يسلك مجرى الزمن الخارجي فللسّجن زمنه الخاص، الذي يتخلّل الذات المسجونة ويطبعها بحركته شبه الراكدة.

والتي من شأنها تبليد الإحساس وقتل المبادرة وإنماء الثورة. بيد أنّ هذا الزمن الدائري يتيح شيئا من الانفراج والانفتاح، فيفتح صدره للتأمّل والمراجعة . وبذلك ينتفي وجوده المادي ليسكن جزيرة تقع على مسافة مابين الواقع واللاّواقع. (19)

فالسجن يشمل موقفا متباطئا تغمره الذكرى، وتعود فيه المواقف السالفة لتأخذ نصيبها من التروي والدرس. فالسجن مكان لا يمتّ ظاهريا بصلة للمواقف التي سلفت، وإنما العلاقة هنا علاقة إطلالة واستشراف. (20)

والسجن إن تحقق مكانيا موقفًا للقهر والحجر، فإنّه زمنيا تعطيل لسيرورة الحياة. يعبّر عنها الإقصاء المكاني والزماني، إذ لا وجود للسجن في المكان العام المشترك ولا الزمان العام. (21)

والمكان المعادي؛ هو المكان الذي ارتبط بالوحشة والعزلة والأسر والانتقال من حال جيدة إلى أسوأ حال، وتتصدّر أغمات الأماكن المعادية لدى المعتمد فهي التي خطّ فيها نهايته، والتي شهدت على ذلّه بعد عِزّه الذي كان، كما يشير إلى أماكن أخرى معادية ارتبط ذكرها بالسياق التاريخي الشخصي لحياة المعتمد بن عباد وهي كما يأتي:

أغمات: خلّد أسر المعتمد ذكر أغمات؛ وهي:"ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب، قرب مراكش، وبينهما ثلاثة فراسخ. وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير (...) وليس بالمغرب فيما زعموا، بلد أجمعُ لأصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظّا منها" (22). وقد ذكرها المعتمد في أسريّاته أربع مرّات فكانت بذلك المكان الأكثر ذكرا، وقد قدّم لها أوصافا معيّنة عكست نظرته إليها.

فنجد نظرته حينا نظرة عامة، فيربط ذكرها بذكر الأسر من غير تفصيل؛ في قوله (23) : [من البسيط]

فيما مضى كُنتَ بالأعيادِ مسرورا فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا

فهو يراها سجنا في قوله(24) : [من الطويل]

تخلّصتم من سجن أغمات والتوت عليّ قيودٌ لم يَحِن فكُّها بعدُ

فهو يربط ذكرها بذكر القيود، وانعدام العدل في إخراج من عاثوا فسادا من فاس وإبقائه هو في الأسر.

وينسب إليها أصوات القيود، ويشبّهها بالألحان الثقيلة على الأرواح والأبدان وقوله (25): [من الكامل]

غنّتكَ أغماتيّة الألحان ثَقُلت على الأرواح والأبدان

ويراها مكانا موحشا تنعب فيه الغربان؛ التي لا تعيش إلاّ في الأماكن غير المأهولة والبعيدة عن الناس والسكّان(26) وقوله : [من البسيط]

غربانَ أغماتَ لا تعدمن طيّبةً من اللّيالي وأفنانًا من الشّجرِ

في حين أنّها مكان يتّسم بالجمال الطبيعي، إلاّ أنّ المعتمد أضفى رؤيته على المكان، فجعله مكانًا مُعاديًا لأنّ الإنسان بطبعه يصبو إلى الحرّية وبالتالي يعادي كلّ مكان يسلبه إياها.

المغرب، طنجة: لم ينظر المعتمد إلى المكان في حديثه عن المغرب؛ " وهي بلاد واسعة كثيرة، و و وعثاء شاسعة، قال بعضهم: حدّها من مدينة مليانة، وهي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط ، وتدخل في جزيرة الأندلس إلى الشمال. (27)، وطنجة؛ وإنّما استعملهما للنّسب إليهما، وذلك لارتباط ذكرهما بمجموعة الشعراء الذين ترصّدوا طريق المعتمد ليجود عليهم بالعطايا، وذلك بعد أن سمعوا صلته التي بعث بها إلى الشاعر المغربي الحصري (28)في قوله (29): [من الكامل]

شُعـراءُ طـنجةَ كُلُّهـــم والمـغربِ ذَهَـبوا من الإغراب أبـعدَ مذهبِ
سألوا الـعسير من الأســـير وإنّـه بســؤالهم لأحقُّ منــهم فاعجَبِ
لـولا الـحـــياءُ وعـــزّةٌ لخـــمية طيَّ الحشا لَحكاهُـم في المـطلبِ
قد كانَ إن سُئِلَ الندى يُـجزِل وإنْ نادى الصّـريخُ ببابه اركب يركّبِ

أماكن أخرى عبّر المعتمد عن عدائه لها، بالرغم من أنها كانت محبّبة، وتنتمي إلى دولته أيّام عزّه. غير أنّه نظر إليها بعد الأسر نظرة عبّرت عن تجربة معاناته في ثكل الأبناء؛ وهذه الأماكن تظهر في قوله (30):[من الطويل]

بَنِيَّ ، صغيرٌ، أو خليلٌ مُوافِقٌ يُـمَزِّقُ ذا قَفْرٌ، ويُغرِقُ ذا بحرُ
ونَجمانِ، زَيْنٌ للزَّمانِ، احتواهما بقُرطُبةَ النّكداءِ، أو رُنْدَةَ، القبرُ

قرطبة: "مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها، وكانت سريرا لمُلكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أميّة" (31) التي لم يدّخر المعتمد أو غيره من ملوك الأندلس جهدا في جعلها في حوزته، وذلك لارتباط ذكرها بمقتل ابنه المأمون الذي ولاّه عليها، وقبلها ابنه الظافر الذي قتله ابن عكاشة؛ فقد حاول الاستيلاء عليها وانتزاعها من بني جهور سنة 461هـ، وفشل في السيطرة عليها، وعاد للاستحواذ عليها في 471هـ وقد بذل المعتمد وقبله أبوه المعتضد كبير الجهد والدّهاء للاستيلاء عليها، إضافة إلى أنّ قرطبة عاصمة الدولة الأموية، وأكبر حاضرة من حواضر الأندلس، فأصبحت النكداء.

رُندة:" بضمّ أوّله وسكون ثانيه، معقل حصين بالأندلس، من أعمال تاكرنا، وهي مدينة قديمة، وهي بين إشبيلية ومالقة (32) التي قُتل بها الراضي وكان آمرا عليها بإذن أبيه، فأصبحت القبر.

من خلال بحثنا في تداولية المكان وخصوصية استعماله في أسريات المعتمد بن عبّاد نخلص إلى أنّ الإشاريات عموما تعمل على إشراك القارئ وتحفيز المتلقّي في محاولته لمعرفة إحالتها في النص. إضافة إلى أنّ المكان في الشعر تحوّل من الاستعمال الطللي إلى استعمالات أخرى استدعاها موقف الشاعر من المكان؛ كموقف الذكريات وموقف الأُلفة والعِدائية. وهو في النص الشعري مرتبط بالسياق الوجودي للشّاعر، بدراسة الإشاريات المكانية مثل أسماء الإشارة وأسماء المكان ومعرفة إحالتها لا تتأتّى إلا بمعرفة الخلفية التاريخية التي أدّت إلى تلك الصورة. وأغلب العناصر الإشارية

الدالّة على المكان التي استعملها المعتمد بن عبّاد هي أسماء أماكن عاش فيها، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر، وبذلك يكون الجانب الإجرائي فيها أوضح. وقد ساعدنا تقسيم الإشاريات المكانية إلى مكان أليف وآخر مُعادٍ، في حسن التصنيف والوصول إلى نتائج تهمّ الدراسة التداولية.

وقد استعمل الإشاريات المكانية في تعبيره عن أماكن أليفة أحبّها أو عاش فيها أو تذكّرها، وتمثلت في الأبنية التي شادها هو وأسلافه، ومظاهر مُلكه من قصور وأبني سلطانية. مثل: الزاهي، المبارك، الثريّا، القبّة. كما عدَّ القبر مكانًا أليفا بعدما أحسّ بدنوّ أجله. وفقد الأمل من الدنيا كلِّها.

أمّا المكان المُعادي؛ فقد عبّر عن أماكن مغربية نسب إليها أسره ومعاناته.مثل أغمات التي خلّدها بشعره، والمغرب التي نسب إليها أسْره، وطنجة التي نسب إليها الشعراء الذين أحرجوه باستجدائهم وملاحقتهم له .

وأماكن أندلسية كَرِهَها بسبب الأحداث التي وقعت فيها وهي: قرطبة التي قُتِل فيها ابناه، ورُندة التي قُتِل فيها ابنه الآخر.

الهوامش:

*)- ينظر ترجمة المعتمد بن عباد في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، د.ط. 1978.ج5، ص: 21. وينظر: الفتح بن خاقان: القلائد، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه: حسين يوسف خريوش، عالم الكتب الحديث، إربد. ط1. 2010. ص: 51. وما بعدها. ابن بسام: الذخيرة، ق1،م 2،ص: 13.وما بعدها. المقّري: النفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، د.ط. 1968، ج4 ، ص: 245.94.. وما بعدها. المراكشي: المعجب: ص:158. وما بعدها. وينظر: ابن عباد (المعتمد): الديوان، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، بإشراف طه حسين،المطبعة الأميرية بالقاهرة، د.ط، 1951. ص: 06. وما بعدها.

1)- ينظر: الأزهر الزناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، ط1، 1993. ص: 116.

2)- ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ط.2002. ص: 54.

3)- ينظر: يوري لوتمان: مشكلة المكان الفنّي، تر: سيزا قاسم. ضمن: جماعة من الباحثين: جماليات المكان، عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء.ط2. 1988. ص: 62.

4)- المرجع نفسه، ص: 63.

5)- ينظر: المرجع السابق ، ص نفسها.

6)- ينظر: المرجع السابق، ص: 79.

7)- ينظر: محمد عبيد صالح السهاني: المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007. ص: 105.

8) - ينظر: غاستون باشلار: جمايات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984. ص: 40.39.38.

9)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 43.

10)- ينظر: المعتمد بن عباد: الديوان، ص: 95.

11)- ينظر: المقري: نفح الطيب، ج4، ص: 274.

12)- ينظر: شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، د.ط، 1989. ص: 340.

13)- ينظر: المقري: نفح الطيب، ج4، ص: 275.

14)- ينظر: المعتمد بن عباد: الديوان، ص: 115.

15)- المصدر نفسه، ص: 115.

16) - المصدر السابق، ص: 96.

17) - المراكشي: المعجب، ص: 208.207.205.

18)- ينظر: محمد عبيد صالح السهاني: المكان في الشعر الأندلسي، ص: 120.

19)- ينظر: حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية، من منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001. ص: 97.

20)- ينظر:المرجع نفسه، ص: نفسها.

21)- ينظر: المرجع نفسه، ص: نفسها.

22)- ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط. 1977. مج1، ص:225.

23)- ينظر: المعتمد بن عباد: الديوان، ص: 100.

24)- ينظر: المصدر نفسه، ص: 95.

25)- ينظر: المصدر السابق، ص: 115.

26)- ينظر: المصدر السابق، ص: 100.

27)- ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 5، ص: 161.

28)- الحُصْري: هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الضرير. وهو غير أبي إسحاق الحصري صاحب زهر الآداب، ولكنه ابن خالته. ينظر: المراكشي: المعجب، ص: 205.

29)- ينظر: المعتمد بن عبّاد: الديوان، ص: 92.91.

30)- ينظر: المصدر نفسه، ص:69.68.

31)- ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج 4، ص: 324.

32)- ينظر: المرجع نفسه، مج 3، ص: 73.